سُورَةُ الرَّعْدِ

مدنية وهي ثلاث وأربعون آية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿ الٓمٓر تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ وَٱلَّذِىٓ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ٱلْحَقُّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ (١) ﴾.

﴿الٓمٓر﴾ اسم السورة الكريمة، وعن ابن عباس معناه: أنا اللهُ أعلم وأرى، أي ما تعملون وتقولون ﴿تِلْكَ﴾ أي آيات السورة المسماة بـ (الٓمر) أشير به لفخامته ﴿ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ﴾ يعني بالكتاب القرآن العظيم المعجز الذي فاق كل كتاب ﴿وَٱلَّذِىٓ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ٱلْحَقُّ﴾ أي والذي أُوحي إليك يا أيها الرسول في هذا القرآن، هو الحقُّ الذي لا يلتبس بالباطل، ولا يحوم حوله الشكُّ، والتعرض لوصف الربوبية، مضافاً إلى ضميره ﷺ من الدلالة على فخامة المُنزل، وتشريف المنزل إليه مما لا يخفى ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ﴾ قيل هم كفار مكة، وقيل: هم اليهود والنصارى، والأولى أن يُراد أكثرهم مطلقاً ﴿لَا يُؤْمِنُونَ﴾ بذلك الحق المبين، لإخلالهم بالنظر والتأمل فيه.

﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِى رَفَعَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِى لِأَجَلٍ مُّسَمًّى يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ يُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لَعَلَّكُم بِلِقَآءِ رَبِّكُمْ تُوقِنُونَ (٢) ﴾.

﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى رَفَعَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ﴾ أي خلقهن مرتفعات بغير دعائم والعماد ما يسند به ﴿تَرَوْنَهَا﴾ أي بغير عمد أصلاً حال كونكم ترونها كذلك، لا تستند على شيء، والمراد أنها قائمة بقدرة الله سبحانه وتعالى، وهو دليل على وجود الصانع الحكيم، تعالى شأنه ﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ﴾ استواء يليق بذاته[1]، وليس المراد به القصد إلى إيجاد العرش، لأن إيجاده قبل إيجاد السماوات ﴿وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ﴾ ذلَّلهما لما أراد منهما من مصالح العباد، كالحركة المستمرة على حدٍّ من السرعة، تنفع في حدوث الكائنات وبقائها ﴿كُلٌّ﴾ من الشمس والقمر ﴿يَجْرِى﴾ يسير في المنازل والدرجات حسبما أريد منهما ﴿لِأَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ لمدة معينة يتم فيها أدواره، وتتحقق بها مصالح العباد، كما في قوله تعالى: ﴿والشمس تجري لمستقر لها ذلك تقدير العزيز العليم والقمر قدرناه منازل﴾ وهو المروي عن ابن عباس، واللام تجيء بمعنى «إلى» أي كل منهما يجري كل يوم، على مدار معين من المدارات اليومية، كالسنة للشمس، والشهر للقمر، والجملة بيان لحِكَم تسخيرهما ﴿يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ﴾ أمر ملكوته من الإيجاد والإعدام، في العالم العلويّ والسفليّ، والمراد أنه سبحانه يقضي ويُقَدِّر ويتصرف في ذلك حسب الحكمة والمصلحة ﴿يُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ﴾ أي ينزلها ويبينها مفصلة، والمراد بها آيات القرآن الكريم، أو الآيات الكونية ﴿لَعَلَّكُم﴾ عند معاينتكم لها تتفكرون فيها، وتتحققون كمال قدرته ﴿بِلِقَآءِ رَبِّكُمْ﴾ بملاقاته ﴿تُوقِنُونَ﴾ فإنَّ من تدبرها حقَّ التدبر، وتحقَّق كمال قدرته، أيقن أن من قَدَر على إبداع هذه الصنائع البديعة، قدر على الإعادة والجزاء.

---

(١) قال الحافظ ابن كثير ٢/٢٦٩: يُمرُّ كما جاء من غير تكييفٍ، ولا تشبيه، ولا تعطيل، ولا تمثيل، تعالى الله علواً كبيراً.

ولمَّا قرَّر الشواهد العلوية، أردفها بذكر الدلائل السفلية، فقال سبحانه:

﴿وَهُوَ ٱلَّذِى مَدَّ ٱلْأَرْضَ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَٰسِىَ وَأَنْهَٰرًا ۖ وَمِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ جَعَلَ فِيهَا زَوْجَيْنِ ٱثْنَيْنِ ۖ يُغْشِى ٱلَّيْلَ ٱلنَّهَارَ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٣﴾﴾.

﴿وَهُوَ ٱلَّذِى مَدَّ ٱلْأَرْضَ﴾ بسطها طولاً وعرضاً، لتثبت عليها الأقدام، وينقلب عليها الحيوان، وقد ثبت بالدلائل القطعية أنَّ الأرض كروية، وكونها كروية لا ينافي بسطها، لأن الكرة إذا كانت في غاية الكبر، كان كل قطعة منها تشاهد كالسطح، كما قال الله تعالى: ﴿وَالجِبَالَ أَوْتَاداً﴾ مع أن الناس يستقرون عليها ويبنون، ومن علماء المسلمين كالغزالي، والفخر الرازي وأبي السعود، وابن تيمية قالوا بكروية الأرض، وظواهر النصوص أدل على هذا، كقوله تعالى: ﴿يُكَوِّرُ اللَّيْلَ عَلَى النَّهَارِ﴾ فهذا يدل على استدارة الأرض، فإن التكوير هو اللفُّ على المستدير، كتكوير العمامة. ﴿وَجَعَلَ فِيهَا﴾ في الأرض ﴿رَوَاسِيَ﴾ جبالاً ثوابت، من رسى الشيءُ إذا ثبت وفي الخبر «لمَّا خلق الله الأرضَ جعلت تميدُ، فخلق الله تعالى الجبال عليها فاستقرت» ﴿وَأَنْهَاراً﴾ ضمها إلى الجبال، وعلق بهما فعلاً واحداً من حيث إن الجبال أسباب لتولدها، وهو مبني على ما ذهب إليه بعض الفلاسفة، من أن الجبال لتركبها من أحجار صلبة، إذا تصاعدت إليها الأبخرة، احتبست فيها، فتنقلب مياهاً، وربما خرقتها فخرجت، والذي تدل الآثار عليه أنها تنزل من السحاب، لكنْ لمَّا كان نزولها عليها أكثر، كانت كثيراً ما تخرج الأنهار منها، ويكفي هذا لتشريكهما إلى عامل واحد، وفي صحيح مسلم عن أبي هريرة قال ﷺ «سَيْحانُ، وجَيْحَانُ، والفراتُ، والنيلُ، كلٌّ من أنهار الجنة»[1] وسيحان وجيحان، هما نهران في أرض الترك، وهما غير سيحون وجيحون بالواو، وفي كون هذه الأنهار من الجنة، تشبيهُ مياهها بمياه الجنة، والإخبار بامتيازها على ما عداها، ومثله

(١) الحديث أخرجه مسلم في كتاب الجنة رقم ٢٨٣٩ باب ما في الدنيا من أنهار الجنة.

كثير في الكلام ﴿وَمِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ جَعَلَ فِيهَا زَوْجَيْنِ ٱثْنَيْنِ﴾ أي وجعل فيها من جميع أنواع الثمرات، صنفين اثنين: كالحلو، والحامض، والأسود والأبيض، والصغير والكبير، والحار والبارد، وما أشبه ذلك ﴿يُغْشِى ٱلَّيْلَ ٱلنَّهَارَ﴾ أي يلبسه مكانه، فيصير الجو مظلماً بعدما كان مضيئاً، وإن احتمل العكس أيضاً فإنَّ الأنسب بالليل، أن يكون هو الغاشي ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ﴾ فيما ذكر من مد الأرض، وتثبيتها بالرواسي، وإجراء الأنهار، وإغشاء الليل ﴿لَءَايَٰتٍ﴾ باهرة جلّتْ حكمةُ صانعها ﴿لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ فإن التفكر فيها، يؤدي إلى الحكم بأن تكوين كل من ذلك، على هذا النمط الرائق، لا بدَّ له من مكوِّنٍ قادر حكيم، يفعل ما يشاء، ويحكم ما يريد.

﴿وَفِى ٱلْأَرْضِ قِطَعٌ مُّتَجَٰوِرَٰتٌ وَجَنَّٰتٌ مِّنْ أَعْنَٰبٍ وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ صِنْوَانٌ وَغَيْرُ صِنْوَانٍ يُسْقَىٰ بِمَآءٍ وَٰحِدٍ وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَىٰ بَعْضٍ فِى ٱلْأُكُلِ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٤﴾﴾.

﴿وَفِى ٱلْأَرْضِ قِطَعٌ﴾ أي بقاع كثيرة مختلفة الأوصاف بعضها طيبة وبعضها سبخة، وبعضها رخوة، وبعضها صلبة، وبعضها يصلح للزرع دون الشجر[1]، وبعضها بالعكس، ولولا تخصيص قادر، موقع لأفعاله على وجه دون وجه، لم تكن كذلك، لاشتراك تلك القطع في الطبيعة الأرضية ﴿مُّتَجَٰوِرَٰتٌ﴾ أي متلاصقات والمقصود الإخبار بتفاوت أجزاء الأرض المتلاصقة ﴿وَجَنَّٰتٌ﴾ أي بساتين كثيرة ﴿مِّنْ أَعْنَٰبٍ﴾ أي من أشجار الكرم

(١) المراد من الآية الكريمة بيان قدرة الله العجيبة، فإن الأرض واحدة، والتربة واحدة، والماء واحد، وتخرج الثمار مختلفة في الشكل، والقدر، والطعم، والرائحة، فمنها أبيض ومنها أسود، ومنها حلو ومنها مرٌّ، ومنها ما له بذر ومنها ما له نوى، ومنها الجيد ومنها الرديء، وخروج الأشجار والثمار المختلفة الأصناف والأشكال، والألوان والطعوم والروائح، مع اتحاد الأصول والأسباب، دلالة ظاهرة على عظمة الله وجلاله، وعلى وحدانيته وكامل قدرته.

﴿وَزَرْعٌ﴾ من كل نوع من أنواع الحبوب، ولعل تقديم ذكر الأعناب على الزرع مع كونها عماد المعاش، لما في صنعة الأعناب مما يبهر العقول، ولو لم يكن فيها إلا أنها مياه متجمدة، في ظروف رقيقة، حتى إن منها شفاف لا يحجب البصر عن إدراك ما في جوفه لكفى ﴿وَنَخِيلٌ﴾ تأخيره لئلا يقع فاصلة بينها وبين صفاتها، وهي قوله تعالى: ﴿صِنْوَانٌ وَغَيْرُ صِنْوَانٍ﴾ جمع صنو، وهي نخلات أصلها واحد، وغير صنوان مختلفة الأصول، وأصلُ الصِّنْو المِثلُ، ومنه قيل: «العم صنو أبيه» ﴿يُسْقَىٰ﴾ أي ما ذكر من القِطع، والجنات، والزرع، والنخيل ﴿بِمَآءٍ وَٰحِدٍ﴾ لا اختلاف في طبعه، سواء كان بماء الأمطار، أو بماء الأنهار ﴿وَنُفَضِّلُ﴾ أي مع وجود أسباب التشابه بمحض قدرتنا ﴿بَعْضَهَا عَلَىٰ بَعْضٍ﴾ آخر منها ﴿فِى ٱلْأُكُلِ﴾ بضم الهمزة والكاف أي فيما يؤكل وهو هنا الثمر والحب ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ﴾ الذي فُصِّل من القطع والجنات، لآيات كثيرة، عظيمة ظاهرة ﴿لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ يعلمون بمقتضى عقولهم، فإن من عقل تلك الأحوال العجيبة، من خروج الثمار المختلفة، في تلك القطع المتلاصقة، مع اتحاد ما تُسقى به، بل وسائر أسباب نموها، لا يتردّد في الجزم بأن لذلك صانعاً حكيماً، قادراً مدبِّراً لها، لا يعجزه شيء، ومن قدر على إبداع ما ذكر، قادر على إعادة ما أبداه. وقال الحسن في هذه الآية: هذا مثل ضربه الله تعالى لقلوب بني آدم، فينزل من السماء تذكرة، فترق قلوب فتخشع، وتقسو قلوب فتلهو ولا تسمع، قال الله تعالى: ﴿وننزِّل من القرآن ما هو شفاء ورحمة للمؤمنين ولا يزيد الظالمين إلا خساراً﴾[1].

﴿۞ وَإِن تَعْجَبْ فَعَجَبٌ قَوْلُهُمْ أَءِذَا كُنَّا تُرَٰبًا أَءِنَّا لَفِى خَلْقٍ جَدِيدٍ ۗ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِرَبِّهِمْ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ ٱلْأَغْلَٰلُ فِىٓ أَعْنَاقِهِمْ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ۝٥﴾.

(١) سورة الإسراء، آية: ٨٢.

﴿وَإِن تَعْجَبْ﴾ يا رسول الله من شيء ﴿فَعَجَبٌ قَوْلُهُمْ﴾ أي فاعجب من قولهم بعد مشاهدة الآيات، الدالة على عظيم قدرته تعالى، أي فليكن عجبك من قولهم ﴿أَءِذَا كُنَّا تُرَٰبًا﴾ إلى آخره، فإنه الذي ينبغي أن يتعجب منه، والاستفهام إنكاري مفيد لكمال الاستبعاد والاستنكار ﴿أَءِنَّا لَفِى خَلْقٍ جَدِيدٍ﴾؟ أي أنُعاد خلقاً جديداً بعد الموت؟ وتكريرُ الهمزة لتأكيد الإنكار، ويجوز أن يكون الخطاب لكل من يصلح له، أي إن تعجب يا من ينظر في هذه الآيات، على قدرة مَنْ هذه أفعاله، فازدد تعجباً ممن ينكر قدرته تعالى على البعث؟ ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ المنكرون للبعث بعد أن عاينوا من آيات ربهم الكبرى، ما يرشدهم إلى الإيمان لو كانوا يبصرون ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِرَبِّهِمْ﴾ فإن إنكارهم لقدرته تعالى على البعث كفر به، وفيه دليل على أن من أنكر البعث فهو كافر بالله عز وجل ﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ ٱلْأَغْلَٰلُ فِىٓ أَعْنَاقِهِمْ﴾ مقيدون أي يُغلُّون يوم القيامة، والأغلال جمع غُل وهو طوق من حديد يجعل في العنق ﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ لا ينفكون عنها، وتوسيطُ ضمير الفصل، ليس لتخصيص الخلود بمنكري البعث، بل بالجميع المدلول عليه بقوله تعالى: ﴿أُولئِكَ الذينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ﴾ وذلك يدل على أن أهل الكبائر لا يخلدون في النار.

﴿وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِٱلسَّيِّئَةِ قَبْلَ ٱلْحَسَنَةِ وَقَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِمُ ٱلْمَثُلَٰتُ ۗ وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ لِّلنَّاسِ عَلَىٰ ظُلْمِهِمْ ۖ وَإِنَّ رَبَّكَ لَشَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿٦﴾﴾.

﴿وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِٱلسَّيِّئَةِ﴾ بالعقوبة وذلك أنهم استعجلوا بما هُدِّدوا به من عذاب الدنيا استهزاء ﴿قَبْلَ ٱلْحَسَنَةِ﴾ أي العافية والسلامة منها أخرج ابن جرير عن قتادة أنه قال في الآية: هؤلاء مشركو العرب، استعجلوا بالشر قبل الخير، فقالوا: ﴿اللَّهُمَّ إِنْ كَانَ هَذَا هُوَ الحَقَّ مِنْ عِنْدِكَ فَأَمْطِرْ عَلَينَا حِجَارَةً مِنَ السَّمَاءِ أَوِ ائْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾[1] وإنما سموا العذاب بالسيئة

(١) سورة الأنفال، آية: ٣٢.

لأنه ممَّا يسوؤهم ﴿وَقَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِمُ ٱلْمَثُلَٰتُ﴾ المَثُلَة بفتح الميم وضم الثاء: نقمةٌ تنزل بالإنسان فيجعل مثلاً ليرتدع به غيره، والمَثلةُ العقوبةُ، الفاضحةُ، وفسرها ابن عباس بالعقوبة المستأصلة للعضو كقطع الأذن ونحوه، سميت به لما بين العقاب والمعاقَب به من المماثلة، كقوله تعالى: ﴿وَجَزَٰٓؤُا۟ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا﴾ ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ﴾ عظيمة ﴿لِّلنَّاسِ عَلَىٰ ظُلْمِهِمْ﴾ بالكفر والمعاصي، والمعنى: أن ربك لذو ستر على عباده، ومغفرة لذنوبهم، لا يعجّل لهم العقوبات وإن كانوا ظالمين لأنفسهم، بل يمهلهم بتأخيرها، وقال ابن عباس: معناه إنه تعالى لذو تجاوزٍ إن تابوا وآمنوا. ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَشَدِيدُ ٱلْعِقَابِ﴾ لتحقيق الوعيد، وإن كانوا تحت ستره وإمهاله، والمراد بالناس الجنس، والتخصيص للكفار غير مختار.

﴿وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ ءَايَةٌ مِّن رَّبِّهِۦٓ ۗ إِنَّمَآ أَنتَ مُنذِرٌ ۖ وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ ﴿٧﴾﴾.

﴿وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ وهم المستعجلون وإنما عدل عن الإضمار ذماً لهم، ونعياً عليهم كفرهم بآيات الله تعالى، حيث لم يرفعوا لها رأساً، ولم يعدُّوها من الآيات وقالوا ﴿لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ﴾ أي على الرسول ﷺ ﴿ءَايَةٌ مِّن رَّبِّهِۦٓ ۗ﴾ مثل آيات موسى وعيسى عناداً ومكابرة، وإلا ففي أدنى آيةٍ أُنزلت عليه ﷺ غُنية وعبرة لأولي الألباب، والتعبير بالمضارع ﴿ويقول﴾ إشارة إلى أن ذلك القول ديدنُهم ﴿إِنَّمَآ أَنتَ مُنذِرٌ﴾ مرسل للإنذار كغيرك من الرسل، وما عليك إلا الإتيان بما يثبت نبوتك، من جنس المعجزات، لا بما يقترحون ﴿وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ﴾ أي نبيٌّ داعٍ إلى الحق، مرشد إليه، بآية تليق به وبزمانه، ثم عقب بما يدل على كمال علمه وقدرته، وشمول قضائه على الحِكَم والمصالح، تنبيهاً على أن تخصيص كل قوم بنبي وكل

نبي بجنس معين من الآيات، إنما هو للحِكَم الداعية إلى ذلك، فقال سبحانه:

﴿ ٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَحْمِلُ كُلُّ أُنثَىٰ وَمَا تَغِيضُ ٱلْأَرْحَامُ وَمَا تَزْدَادُ ۖ وَكُلُّ شَىْءٍ عِندَهُۥ بِمِقْدَارٍ ﴿٨﴾ ﴾.

﴿ ٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَحْمِلُ كُلُّ أُنثَىٰ ﴾ أي ما تحمله كل أنثى في بطنها على أيِّ حالٍ هو، من الأحوال الحاضرة والمترقبة ﴿ وَمَا تَغِيضُ ٱلْأَرْحَامُ وَمَا تَزْدَادُ ۖ ﴾ أي وما تُنقصه وما تزداده في الجثة، كالخديج والتام، وفي المدة كالمولود في أقل مدة الحمل وفي أكثرها، وفيما بينهما وفي الصفة من الذكورة والأنوثة، والحسن والقبح، وغير ذلك ﴿ وَكُلُّ شَىْءٍ ﴾ من الأشياء ﴿ عِندَهُۥ ﴾ سبحانه ﴿ بِمِقْدَارٍ ﴾ بقدرٍ لا يجاوزه، ولا ينقص عنه كقوله سبحانه: ﴿إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ﴾ فإنه تعالى خصَّ كل حادث بوقت، وحال معينين، وهيأ له أسباباً تقتضي ذلكَ.

﴿ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ ٱلْكَبِيرُ ٱلْمُتَعَالِ ﴿٩﴾ ﴾.

﴿ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ ﴾ الغائب عن الحق ﴿ وَٱلشَّهَٰدَةِ ﴾ الحاضر له، عبَّر عنهما بها مبالغة، وقيل: أُريد بالغيب المعدوم وبالشهادة الموجود، وهذا كالدليل لما قبله من قوله تعالى: ﴿اللهُ يَعْلَمُ مَا تَحْمِلُ كُلُّ أُنْثَىٰ﴾ ﴿ ٱلْكَبِيرُ ﴾ العظيم الشأن الذي كل شيء دونه ﴿ ٱلْمُتَعَالِ ﴾ المستعلي على كل شيء بقدرته بذاته، وسائر صفاته سبحانه، والمنزه عن نعوت المخلوقات.

﴿ سَوَآءٌ مِّنكُم مَّنْ أَسَرَّ ٱلْقَوْلَ وَمَن جَهَرَ بِهِۦ وَمَنْ هُوَ مُسْتَخْفٍۭ بِٱلَّيْلِ وَسَارِبٌۢ بِٱلنَّهَارِ ﴿١٠﴾ ﴾.

﴿ سَوَآءٌ مِّنكُم مَّنْ أَسَرَّ ٱلْقَوْلَ ﴾ أخفاه في نفسه ولم يتلفظ به ﴿ وَمَن جَهَرَ

بِهِۦ﴾ أظهره لغيره ﴿وَمَنْ هُوَ مُسْتَخْفٍۭ﴾ مبالغ في الاختفاء كأنه مختف ﴿بِٱلَّيْلِ﴾ وطالب للزيادة ﴿وَسَارِبٌۢ بِٱلنَّهَارِ﴾ أي ظاهر فيه، من سَرَبَ سُروباً من باب قعد ذهب في النهار، وقيل: إنه حقيقة في الظاهر.

﴿لَهُۥ مُعَقِّبَٰتٌ مِّنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِۦ يَحْفَظُونَهُۥ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ ۗ وَإِذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِقَوْمٍ سُوٓءًا فَلَا مَرَدَّ لَهُۥ ۚ وَمَا لَهُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَالٍ ﴿١١﴾﴾.

﴿لَهُۥ﴾ أي للإنسان لكل ممن أسرَّ أو جهر ﴿مُعَقِّبَٰتٌ﴾ ملائكة تعتقب في حفظه، وكلاءته، يُقال: عقَّبه، إذا جاء على عقبه، كأن بعضهم يعقب بعضاً، بعضهم بالليل، وبعضهم بالنهار، يتعاقبون في حفظه، والتاء في المعقبة للمبالغة كالعلامة، لأن الملائكة غير مؤنثين، فمعنى معقبات جماعات كل جماعة منها معقبة ﴿مِّنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِۦ﴾ أي محيطة به من جوانبه، من أمام الإنسان ومن ورائه ﴿يَحْفَظُونَهُۥ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ﴾ أي يحفظونه من المضارِّ والأخطار بأمره تعالى، ويراقبون أحواله، وقيل «مِنْ» هنا بمعنى «الباء» أي بأمر الله، وفي الصحيح «يتعاقبون فيكم ملائكة بالليل، وملائكة بالنهار، فيجتمعون في صلاة الصبح، وصلاة العصر..»[1] الحديث، وذكروا أن مع العبد، غير الملائكة الكرام الكاتبين، ملائكة حفظة، واستشكل أمرُ الحفظ بأن المقدَّر لا بد أن يكون، فالحفظُ لأيِّ شيء؟ وأجيب بأن من القضاء والقدر ما هو معلَّق، فيكون الحفظ منه، يقال: إنه جلت عظمته جعل أولئك الحفظة أسباباً للحفظ، كما جعل الجفنَ للعين، سبباً لحفظها، والعلمُ بأن أفعاله تعالى لا تخلو عن الحِكَم والمصالح على الإجمال، مما يكفي المؤمن، ويقال نحو هذا في أمر الكرام الكاتبين، فهم موجودون بالنص، وقد جعلهم تعالى حفظةً، لأعمال العبد، ونحن نؤمن

(١) الحديث أخرجه البخاري ٢/ ٢٨ في مواقيتِ الصلاة، ومسلم رقم ٦٣٢ في المساجد.

بذلك، وإن لم نعلم ما قلمُهم؟ وما مدادُهم؟ وما قرطاسهم؟ وكيف كتابتُهم؟ وما حكمة ذلك؟ مع أن علمه تعالى كافٍ في الثواب والعقاب.

ثم إنه سبحانه بعد أن ذكر إحاطة علمه بالعباد، وأن لهم معقبات، نبَّه على لزوم الطاعة ووبال المعصية فقال: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ﴾ من النعمة والعافية ﴿حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾ من الأحوال الجميلة بالأحوال القبيحة، ومن الأعمال الصالحة والملكات التي فطر الناس عليها إلى أضدادها لا مجرد تركها، واستشكل ظاهر الآية بما قرر له الشريعة من أخذ العامة بذنوب الخاصة ومنه قوله سبحانه: ﴿واتقوا فتنةً لا تصيبنَّ الذين ظلموا منكم خاصة﴾ وقوله ﷺ: «إن النَّاسَ إذا رأوا الظالم ولم يأخذوا على يده يوشك أن يعمهم الله سبحانه بعقاب»[1] والحق أن المراد أن ذلك عادة الله الجارية في الأكثر، لا أنه سبحانه لا يصيب قوماً إلا بتقدم ذنب منهم ﴿وَإِذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِقَوْمٍ سُوٓءًا فَلَا مَرَدَّ لَهُۥ﴾ فلا ردَّ له، والسوء يجمع كلَّ ما يسوء الإنسان من مرض، وفقر، وغيرهما من أنواع البلاء ﴿وَمَا لَهُم مِّن دُونِهِۦ﴾ سبحانه ﴿مِن وَالٍ﴾ ممن يلي أمرهم، فيدفع عنهم السوء، وفيه إيذان بأنهم بما باشروه من إنكار البعث، واستعجال السيئة، واقتراح الآية، قد غيّروا ما بأنفسهم من الفطرة، فاستحقوا حلول غضب الله وعذابه.

﴿هُوَ ٱلَّذِى يُرِيكُمُ ٱلْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا وَيُنشِئُ ٱلسَّحَابَ ٱلثِّقَالَ ﴿١٢﴾﴾.

﴿هُوَ ٱلَّذِى يُرِيكُمُ ٱلْبَرْقَ خَوْفًا﴾ من الصاعقة ﴿وَطَمَعًا﴾ في الغيث، وتقديم الخوف لما أن المخوف عليه النفس، والمطموع فيه الرزق المترقب، وعن الحسن أنه قال خوفاً لأهل البحر، وطمعاً لأهل البر

(١) الحديث أخرجه الترمذي رقم ٣٠٥٩ في أبواب تفسير القرآن، وابن ماجه في الفتن رقم ٤٠٠٥.

﴿وَيُنشِئُ ٱلسَّحَابَ﴾ الغمام المنسحب في الجو ﴿ٱلثِّقَالَ﴾ بالماء، وهي جمع ثقيلة كامرأةٍ كريمة، ونسوةٍ كرام، وُصف بها السحابُ، لكونه اسم جنس في معنى الجمع.

﴿وَيُسَبِّحُ ٱلرَّعْدُ بِحَمْدِهِۦ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ مِنْ خِيفَتِهِۦ وَيُرْسِلُ ٱلصَّوَٰعِقَ فَيُصِيبُ بِهَا مَن يَشَآءُ وَهُمْ يُجَٰدِلُونَ فِى ٱللَّهِ وَهُوَ شَدِيدُ ٱلْمِحَالِ ﴿١٣﴾﴾.

﴿وَيُسَبِّحُ ٱلرَّعْدُ﴾ أي يسبّح سامعوه من العباد الراجين للمطر، ملتبسين ﴿بِحَمْدِهِۦ﴾ أي يقولون سبحان الله وبحمده، وإسناده إلى الرعد لحمله لهم على ذلك، أو يسبح الرعد نفسه، على أن تسبيحه عبارة عن دلالته على تنزيهه تعالى عن الشريك، ولما فيهما من الدلالة على صفات الكمال، وعن ابن عباس «الرَّعدُ مَلَك من الملائكة موكَّلٌ بالسحاب»[1] والتجربة دالة على أن للتضرع والدعاء، في انعقاد السحاب، ونزول الغيث، أثراً عظيماً، وهو يأبى أن يكون ذلك للطبيعة، فليس كلُّ ذلك إلاَّ بإحداث محدث، حكيم قادر، يخلق ما يشاء، وكان رسولُ الله ﷺ إذا سمع صوت الرعد والصواعق، قال: «اللهمَّ لا تقتلنا بغضبك، ولا تُهلكنا بعذابك، وعافنا قبل ذلك»[2] ﴿وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ مِنْ خِيفَتِهِۦ﴾ أي وتسبح الملائكة من خوف الله تعالى وإجلاله ﴿وَيُرْسِلُ ٱلصَّوَٰعِقَ﴾ جمع صاعقة والمراد بها هنا النار النازلة من السحاب مع صوت شديد ﴿فَيُصِيبُ﴾ سبحانه ﴿بِهَا مَن يَشَآءُ﴾ إصابته بها، فيهلكه بذلك ﴿وَهُمْ﴾ أي الذين كفروا وكذَّبوا الرسول ﷺ ﴿يُجَٰدِلُونَ فِى ٱللَّهِ﴾ حيث يكذّبون الصادق، فيما أخبر عنه، من كمال العلم والقدرة، والتفرد بالألوهية ﴿وَهُوَ﴾ سبحانه وتعالى ﴿شَدِيدُ

---

(١) أخرجه الترمذي في التفسير ٥/ ٢٧٤ وقال: حديث حسن غريب، ورواه أحمد والنسائي في قصة طويلة عن اليهود، وانظر تمامه في الدر المنثور ٤/ ٥٠.

(٢) أخرجه الترمذي وإسناده ضعيف، وانظر المنتقى المختار من الأذكار صفحة ٦٨ للإمام النووي.

﴿ٱلْمِحَالِ﴾ أي والحال أنه تعالى شديد القوة، والبطش والنكال، والمماكرة لأعدائه، من مَحَل بفلانٍ إذا كايده، وعرَّضه للهلاك، فهو مصدر كالقتال[1].

﴿لَهُۥ دَعْوَةُ ٱلْحَقِّ ۖ وَٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ لَا يَسْتَجِيبُونَ لَهُم بِشَىْءٍ إِلَّا كَبَٰسِطِ كَفَّيْهِ إِلَى ٱلْمَآءِ لِيَبْلُغَ فَاهُ وَمَا هُوَ بِبَٰلِغِهِۦ ۚ وَمَا دُعَآءُ ٱلْكَٰفِرِينَ إِلَّا فِى ضَلَٰلٍ ﴿١٤﴾﴾.

﴿لَهُۥ﴾ أي لله تعالى ﴿دَعْوَةُ ٱلْحَقِّ ۖ﴾ أي الدعاء والتضرع المجاب عند وقوعه، والمراد أن إجابة ذلك له تعالى دون غيره، ويؤيده ما بعده، وعن عليّ كرم الله وجهه ﴿دَعْوَةُ الحَقِّ﴾ التوحيدُ، وعن ابن عباس ما هو أعم من ذلك وقيل دعوةُ الحق: الدعاءُ عند الخوف، فإنه لا يُدعى إلا اللهُ سبحانه، وقيل المراد به العبادة، وحاصل المعنى: أن الذي يحق أن يُعبد هو الله تعالى دون غيره، فالوجه أن ذلك وعيد للكفرة، على مجادلتهم الرسول ﷺ بحلول نقمته بهم، وتهديدهم بإجابة دعائه ﷺ إن دعا عليهم ﴿وَٱلَّذِينَ يَدْعُونَ﴾ أي والأصنام الذين يدعوهم المشركون ﴿مِن دُونِهِۦ﴾ أي من دون الله تعالى، لأن معناه متجاوزين له تعالى، وتجاوزهم إنما هو بعبادتها. ﴿لَا يَسْتَجِيبُونَ﴾ أي لا يستجيبون لهم دعاءً، ولا يسمعون لهم نداء ﴿لَهُم﴾ أي للمشركين ﴿بِشَىْءٍ﴾ من طلباتهم ﴿إِلَّا كَبَٰسِطِ كَفَّيْهِ إِلَى ٱلْمَآءِ﴾ أي لا يستجيبون شيئاً من الاستجابة، إلا كاستجابة الماء، لمن بسط كفيه إليه من بعيد، يطلبه ويدعوه ﴿لِيَبْلُغَ﴾ أي الماء بنفسه من غير أن يأخذ بشيء من إناء وغيره ﴿فَاهُ وَمَا هُوَ﴾ أي الماء ﴿بِبَٰلِغِهِۦ﴾ أي ببالغ فيه أبداً لكونه جماداً لا يشعر بعطشه، وبسط يده إليه، شبّه حال المشركين في دعاء آلهتهم، بحال عطشان قد بسط كفيه من بعيد إلى الماء يبغي وصوله إلى

---

(١) أي أنه تعالى شديد المكر والكيد لأعدائه، يهلكهم من حيث لا يعلمون، فالمحالُ بمعنى المماحلة أي المكايدة.

يديه[1] ﴿وَمَا دُعَآءُ ٱلْكَٰفِرِينَ إِلَّا فِى ضَلَٰلٍ﴾ في ضياع وخسار وباطل، والمراد بهذا الدعاء دعاء آلهتهم لكشف الضر عنهم.

﴿وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَظِلَٰلُهُم بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْءَاصَالِ ﴿١٥﴾﴾.

﴿وَلِلَّهِ﴾ وحده ﴿يَسْجُدُ﴾ يخضع وينقاد لا لشيء غيره، لا استقلالاً ولا اشتراكاً ﴿مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ من الملائكة والثقلين ﴿طَوْعًا وَكَرْهًا﴾ فإن خضوع الكل لعظمة الله عز وجل، لإحداث ما أراده فيهم، من أحكام التكوين والإعدام، شاؤوا أو أبوا، ونظير هذه الآية قوله تعالى: ﴿بَلْ لَهُ مَا فِي السَّمَواتِ وَالأَرْضِ كُلٌّ لَهُ قَانِتُون﴾ ﴿وَظِلَٰلُهُم﴾ أي تنقاد له تعالى ﴿بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْءَاصَالِ﴾ والمراد بهما الدوام، وتخصيص الوقتين، لأن الامتداد والتقلص أظهر فيهما، والغدوُّ جمع غَدَاة وهي الضحى، والآصالُ: جمعُ أصيل، وهو ما بين العصر والمغرب، وقيل: إن المراد حقيقة السجود، فإن الكفرة حالة الاضطرار يخصون السجود به تعالى، قال سبحانه ﴿فإذا رَكِبوُا فِي الفُلْكِ دَعَوا اللهَ مُخْلِصينَ لَهُ الدين﴾[2] ولا يبعد أن يخلق الله تعالى في الظلال أفهاماً وعقولاً تسجد لله تعالى، كما خلق ذلك للجبال، حتى اشتغلت بالتسبيح، وظهر فيه آثار التجلي، واختار المحققون أن مساق الآية، إنما هو أن العالم كله خاضع لما أراد سبحانه منه، مقصور على مشيئته تعالى، ويدلُّ على هذا تشريك الظلال في السجود، وهي ليست أشخاصاً يُتصور منها السجود بالهيئة فهو تمثيلٌ للخضوع والإذعان.

---

(١) مثل في منتهى الإبداع والإعجاز، مثَّل تعالى لحال هؤلاء المشركين، في عبادتهم للأصنام، ودعائهم لها، بحال إنسان اشتد به العطش، فهام على وجهه يبحث عن الماء، فلما رأى الماءَ أخذ يبسط كفيه إليه يدعوه ليذهب غُلَّته، والماء جماد لا يحس ولا يشعر بعطشه، فكذلك حال هؤلاء المشركين مع الأصنام، ويا له من تمثيل بديع!!.

(٢) سورة العنكبوت، آية: ٦٥.

﴿ قُلْ مَن رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ قُلِ ٱللَّهُ ۚ قُلْ أَفَٱتَّخَذْتُم مِّن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ لَا يَمْلِكُونَ لِأَنفُسِهِمْ نَفْعًا وَلَا ضَرًّا ۚ قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ أَمْ هَلْ تَسْتَوِى ٱلظُّلُمَٰتُ وَٱلنُّورُ ۚ أَمْ جَعَلُوا۟ لِلَّهِ شُرَكَآءَ خَلَقُوا۟ كَخَلْقِهِۦ فَتَشَٰبَهَ ٱلْخَلْقُ عَلَيْهِمْ ۚ قُلِ ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَىْءٍ وَهُوَ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّٰرُ ﴿١٦﴾ ﴾.

﴿ قُلْ مَن رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾ أي منْ خالقهما ومتولي أمرهما؟ أي قل يا رسول الله لهؤلاء الكفار: من ربُّ هذه الأجرام العظيمة، العلوية والسفلية؟ ﴿ قُلِ ٱللَّهُ ۚ ﴾ أجب عنهم بذلك، إذ لا جواب لهم سواه، ولأنه البيِّنُ الذي لا يمكن المِرَاءُ فيه، ويجوز أن يكون ذلك تلقيناً للجواب ليبين لهم ما هم عليه من مخالفتهم لما علموه ﴿ قُلْ ﴾ إلزاماً لهم ﴿ أَفَٱتَّخَذْتُم ﴾ أي أعلمتم أن ربهما هو الله سبحانه فاتخذتم عقيبه ﴿ مِّن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ ﴾ عاجزين ﴿ لَا يَمْلِكُونَ لِأَنفُسِهِمْ ﴾ وهي أعز عليهم منكم ﴿ نَفْعًا وَلَا ضَرًّا ۚ ﴾ يستجلبونه أو يدفعونه عنها، فضلاً عن القدرة على جلب النفع للغير، ودفع الضر عنه، وهذا دليل ثانٍ على ضلالهم، وفساد رأيهم في اتخاذهم الأولياء، رجاء أن ينفعوهم ﴿ قُلْ ﴾ يا رسول الله تصويراً لآرائهم الركيكة بصورة المحسوس ﴿ هَلْ يَسْتَوِى ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ ﴾ أي هل يستوي المشرك الضال الذي يشبه الأعمى، والمؤمن الموحّد الذي هو البصير؟ والمراد لا يستوي المؤمن والكافر كما لا يستوي الأعمى والبصير[1] ﴿ أَمْ هَلْ تَسْتَوِى ٱلظُّلُمَٰتُ وَٱلنُّورُ ۚ ﴾؟ الظلمات هي عبارة عن الكفر والضلال، والنورُ هو عبارة عن الإيمان

---

(١) هذا تمثيل لضلال المشركين في عبادة غير الله، والمراد بالأعمى الكافرُ، وبالبصير المؤمنُ، كما أن المراد بالظلمات الكفر والضلال، وبالنور الهدى والإيمان، والمعنى: كما لا يستوي الأعمى والبصير، كذلك لا يستوي المؤمن الذي يبصر ضياء الحق، والمشرك الذي عمي عن رؤية ذلك الضياء، فالفارق بين الحق والباطل واضح وضوح الفارق بين الأعمى والبصير، والفارق بين الإيمان والضلال ظاهر ظهور الفارق بين النور والظلام، والله أعلم بمراده.

والتوحيد، وجمع الظلمات لتعدد أنواع الكفر ﴿أَمْ جَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ﴾ بل أجعلوا، الهمزة للإنكار ﴿خَلَقُوا كَخَلْقِهِ﴾ سبحانه ﴿فَتَشَابَهَ الْخَلْقُ عَلَيْهِمْ﴾ أي تشابه عليهم خلق الله وخلقهم، والمعنى: إنهم ما اتخذوا لله شركاء قادرين مثله جلَّ وعلا حتى يتشابه عليهم الخلق، فيقولوا هؤلاء الشركاء خلقوا كما خلق الله، فاستحقوا العبادة، ولكنهم اتخذوا شركاء، لا يقدرون على ما يقدر عليه الخلق، فضلاً عما يقدر عليه الخالق، وليس لهم شبهة تصلح أن تكون منشأً لغلطهم، وإذا كان الأمر كذلك، كان فعلهم محضَ السَّفه والجهل ﴿قُلِ﴾ يا رسول الله تحقيقاً للحق، وإرشاداً لهم إليه ﴿اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ﴾ لا خالق سواه ﴿وَهُوَ الْوَاحِدُ﴾ المتوحِّد بالألوهية ﴿الْقَهَّارُ﴾ الغالب على كل شيء، فكيف يُتوهم أن يكون له شريك؟ وهذا كالنتيجة لما قبله.

﴿أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌ بِقَدَرِهَا فَاحْتَمَلَ السَّيْلُ زَبَدًا رَّابِيًا وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِي النَّارِ ابْتِغَاءَ حِلْيَةٍ أَوْ مَتَاعٍ زَبَدٌ مِّثْلُهُ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْحَقَّ وَالْبَاطِلَ فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً وَأَمَّا مَا يَنفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الْأَرْضِ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ ﴿١٧﴾﴾.

﴿أَنزَلَ﴾ الواحد القهار ﴿مِنَ السَّمَاءِ﴾ من جهتها ﴿مَاءً﴾ كثيراً وهو ماء المطر ﴿فَسَالَتْ﴾ بذلك ﴿أَوْدِيَةٌ﴾ أي أنهار، جمع واد وهو الموضع الذي يسيل الماء فيه بكثرة، فاتُّسع فيه، واستُعمِل للماء الجاري، وتنكيرها لأن المطر يأتي على تناوب بين البقاع ﴿بِقَدَرِهَا﴾ بمقدارها الذي علم الله تعالى أنه نافع غير ضار، أو بمقدارها في الصغر والكبر ﴿فَاحْتَمَلَ﴾ أي حمل، وجاء «افتعل» بمعنى المجرَّد، كاقتدر وقدر، أي رفع وحمل ﴿السَّيْلُ﴾ الماء الجاري في تلك الأودية حمل معه بسبب السيل ﴿زَبَدًا﴾ أي غثاءً منتفخاً يشبه الرغوة، والزبد: هو الغثاء الذي يطرحه الوادي إذا تدفق ماؤه ﴿رَّابِيًا﴾ أي عالياً منتفخاً فوق الماء، يضمحل عمَّا قريب، فالحقُّ الثابت هو الماء، والزبد الزائل هو الباطل، وذلك شأن الزبد، وهنا

تمَّ المثل، ثم ابتدأ بمثل آخر فقال سبحانه: ﴿وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ﴾ أي ومن الذي يوقد عليه الناس ﴿فِي ٱلنَّارِ﴾ لإذابته نحو الذهب، والفضة، والحديد، والنحاس ﴿ٱبْتِغَآءَ حِلْيَةٍ﴾ أي طلب زينة فإن أكثر الزين من الذهب والفضة ﴿أَوْ مَتَٰعٍ﴾ وهو ما يتمتع وينتفع به كالأواني، وآلات الحرب، والحرث، التي تستخرج من النحاس والحديد والرصاص، تذاب فيتخذ منها الأواني وآلات الحروب والحرث ﴿زَبَدٌ مِّثْلُهُۥ﴾ أي ومنه ينشأ زَبَدٌ مثل زَبَد الماء، يعلو عليه إذا أُذيب وهو الخَبَثُ، يطفو ولكنه بعدُ خَبَث يذهب، ويبقى المعدن الصافي في نقاء، ذلك مثل الحق والباطل، فالباطل يطفو ويعلو ويبدو رابياً منتفخاً، لا يلبث أن يذهب جفاء مطروحاً لا حقيقة له ولا بقاء، والحق يظل هادئاً ساكناً، ولكنه الباقي في الأرض كالماء الذي فيه حياة، والمعدن الصافي الذي فيه النفع. ﴿كَذَٰلِكَ﴾ أي مثل ذلك الضرب البديع، المشتمل على نكت رائعة ﴿يَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْحَقَّ وَٱلْبَٰطِلَ﴾ أي يضرب مَثَل الحق، ومَثَل الباطل، فمثَلُ الحق في ثباته واستقراره، كمثل الماء الصافي الذي يستقر في الأرض، فينبت به أنواع الخضار والثمار، ومَثَل الباطل في زواله واضمحلاله، كمثل الزبد والغثاء ﴿فَأَمَّا ٱلزَّبَدُ﴾ من كل منهما من السيل وما يوقدون عليه ﴿فَيَذْهَبُ جُفَآءً﴾ مرمياً به، يقذف به السيل، فيتفرق ويتمزَّق ويذهب في أطراف الوديان ﴿وَأَمَّا مَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ﴾ منهما كالماء الصافي، والفلز الخالص من الخبث ﴿فَيَمْكُثُ﴾ أي يبقى ﴿فِي ٱلْأَرْضِ﴾ فينتفع منه الناس، أمَّا الماء فيسلك بعضه في عروق الأرض، إلى العيون والآبار، وأما الفلزات فيصاغ من بعضه أنواع الحلي، ويُتخذ من بعضه آلات وأدوات ﴿كَذَٰلِكَ﴾ أي مثل ذلك التمثيل العجيب ﴿يَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَالَ﴾ في كل باب، إظهاراً لكمال اللطف، والعناية في الإرشاد، وفيه تفخيم لشأن هذا التمثيل، وتأكيد لقوله تعالى: ﴿كذلك يَضْرِبُ اللهُ الحَقَّ وَالبَاطِلَ﴾.

وبعد ما بيَّن الله شأن حال كلٍّ منهما أكمل بيان، شرح مصير كل منهما مآلا، تكميلاً للدعوة، وترغيباً وترهيباً فقال سبحانه:

﴿لِلَّذِينَ ٱسْتَجَابُوا۟ لِرَبِّهِمُ ٱلْحُسْنَىٰ ۚ وَٱلَّذِينَ لَمْ يَسْتَجِيبُوا۟ لَهُۥ لَوْ أَنَّ لَهُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُۥ مَعَهُۥ لَٱفْتَدَوْا۟ بِهِۦٓ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ سُوٓءُ ٱلْحِسَابِ وَمَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ ﴿١٨﴾﴾.

﴿لِلَّذِينَ ٱسْتَجَابُوا۟ لِرَبِّهِمُ﴾ أي للمؤمنين الصادقين، الذين استجابوا لله بالإيمان والطاعة ودعاهم إلى الحق بفنون الدعوة التي من جملتها ضرب الأمثال ﴿ٱلْحُسْنَىٰ ۚ﴾ أي المثوبة الحسنى وهي الجنة، قاله قتادة والجمهور، وقال مجاهد: لهم الحياةُ الحسنى، أي الطيبة التي لا يشوبها كَدرٌ أصلاً ﴿وَٱلَّذِينَ لَمْ يَسْتَجِيبُوا۟ لَهُۥ﴾ سبحانه، وعاندوا الحق الجلي ﴿لَوْ أَنَّ لَهُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ من أصناف الأموال ﴿جَمِيعًا﴾ بحيث لم يشذ منه شاذ في أقطارها ﴿وَمِثْلَهُۥ مَعَهُۥ لَٱفْتَدَوْا۟ بِهِۦٓ ۚ﴾ أي لبذلوا فداءً لأنفسهم جميع ما في الأرض، ليتخلصوا به من العذاب، وفيه من تهويل ما يلقاهم ما لا يحيط به البيان ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ سُوٓءُ ٱلْحِسَابِ﴾ أي يحاسبون بذنوبهم كلها، فلا تقبل حسناتهم، ولا تُغفر سيئاتهم ﴿وَمَأْوَىٰهُمْ﴾ أي مرجعهم ﴿جَهَنَّمُ﴾ نار جهنم يخلَّدون فيها ﴿وَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ﴾ أي المستقر، والمخصوص بالذم محذوف أي بئست جهنم مهادهم وفراشهم.

﴿۞ أَفَمَن يَعْلَمُ أَنَّمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ٱلْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَىٰٓ ۚ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿١٩﴾﴾.

﴿۞ أَفَمَن يَعْلَمُ أَنَّمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ﴾ أي القرآن الذي أنزلناه عليك يا محمد وهو النور الوهاج، والإبريز الخالص في المنفعة والجدوى ﴿مِن رَّبِّكَ ٱلْحَقُّ﴾ الذي لا حق وراءه فيستجيب له، ويؤمن به، ويعمل بما فيه ﴿كَمَنْ هُوَ أَعْمَىٰٓ ۚ﴾؟ أي أعمى القلب، لا يشاهد أنوار الدين، ولا يدرك محاسنه، فيبقى حائراً في ظلمات الجهل، يتخبَّط في مهاوي الضلال؟ وأريد بلفظ العمى زيادة تقبيح حاله، فعبَّر عنه بالأعمى، فالعالم بالشيء كالبصير، والجاهل به كالأعمى، وليس أحدهما كالآخر، إذ الأعمىٰ إذا أخذ يمشي بغير قائد، إمّا يقع في

مهلكة، وإمّا يفسد ما كان على طريقه، أما البصير فيكون آمناً من الهلاك والإهلاك ﴿إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ﴾ أي يتعظ بما ذُكر من الآيات ﴿أُولُوا الْأَلْبَابِ﴾ أي ذوو العقول الخالصة، المبرَّأة من معارضة الوهم.

﴿الَّذِينَ يُوفُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ وَلَا يَنقُضُونَ الْمِيثَاقَ (٢٠)﴾.

﴿الَّذِينَ يُوفُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ﴾ أي بما عقدوه على أنفسهم، من الاعتراف بربوبيته تعالى، والعمل بشريعته المطهرة، ويدخل فيه الإتيان بجميع المأمورات، والانتهاء عن كل المنهيات ﴿وَلَا يَنقُضُونَ الْمِيثَاقَ﴾ ما وثَّقوه على أنفسهم وقبلوه من المواثيق، وفيه تأكيد للاستمرار من صيغة المستقبل.

﴿وَالَّذِينَ يَصِلُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَن يُوصَلَ وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ وَيَخَافُونَ سُوءَ الْحِسَابِ (٢١)﴾.

﴿وَالَّذِينَ يَصِلُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَن يُوصَلَ﴾ الظاهر العموم في كل ما أمر الله تعالى به، في كتابه، وعلى لسان نبيه ﷺ من صلة الرحم، وموالاة المؤمنين، والإيمان بجميع الأنبياء، من غير تفريق بين أحد منهم، ويندرج فيه مراعاة جميع حقوق الناس، من النصح، والإحسان إليهم، ونصرتهم، والندب عنهم، والشفقة عليهم، وإفشاء السلام، وعيادة مرضاهم ونحوها، حتى تدخل فيه حقوق الحيوانات ﴿وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ﴾ وعيده سبحانه، والظاهر أن المراد مطلقاً أي يخافون ربهم إجلالاً وتعظيماً، فلا ينتهكون محارمه ﴿وَيَخَافُونَ سُوءَ الْحِسَابِ﴾ فيحاسبون أنفسهم قبل أن يحاسبوا، وفيه دلالة على فظاعته وشدته، وهذا من قبيل ذكر الخاص بعد العام، للاهتمام.

﴿وَالَّذِينَ صَبَرُوا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَنفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً وَيَدْرَءُونَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ أُولَئِكَ لَهُمْ عُقْبَى الدَّارِ (٢٢)﴾.

﴿ وَٱلَّذِينَ صَبَرُوا۟ ﴾ على كل ما تكرهه النفس، من الأفعال، ومن المصائب المالية والبدنية ﴿ ٱبْتِغَآءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ ﴾ طلباً لرضاه خاصة، لا رياء، أو سمعة والإنسان يصبر إما ليقال ما أكمل صبره، وإما لئلا يعاب بالجزع، وإما لئلا تحصل شماتة الأعداء، فهذه الوجوه ليست لابتغاء وجه الله تعالى، وأما إذا صبر لعلمه بأنه قِسمة القَسَّام، ورضي بذلك، يصدق عليه أنه صبر ابتغاء وجه ربه، كما أن العاشق يرضى بضرب المعشوق ﴿ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ ﴾ المفروضة، وداموا عليها، بإتمام أركانها، وشرائطها ﴿ وَأَنفَقُوا۟ مِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ ﴾ أي بعضها الذي يجب عليهم إنفاقه، وهو الزكاة ﴿ سِرًّا ﴾ أي ينفقها في الخفاء خشية الرياء، فإن لم يُتَّهم بترك الزكاة، فالأولى أداؤه سراً، وإلاَّ فعلانية، أو ينفق سراً لمن تمنعه المروءةُ من أخذه ظاهراً ﴿ وَعَلَانِيَةً ﴾ لمن لم يكن كما ذكر ﴿ وَيَدْرَءُونَ بِٱلْحَسَنَةِ ٱلسَّيِّئَةَ ﴾ أي يجازون السيئة بالإحسان، أو يتبعون الحسنة السيئة فتمحوها وفي الحديث الشريف «وأتبع السيئة الحسنة تمحها» ﴿ أُو۟لَٰٓئِكَ ﴾ المنعوتون بالنعوت الجليلة، وليس المراد بهم أناساً بأعيانهم ﴿ لَهُمْ عُقْبَى ٱلدَّارِ ﴾ أي عاقبة الدنيا المحمودة وما ينبغي أن يكون مآل أهلها، وهي الجنة دار السرور، من غير خوف بدخول النار.

﴿ جَنَّٰتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا وَمَن صَلَحَ مِنْ ءَابَآئِهِمْ وَأَزْوَٰجِهِمْ وَذُرِّيَّٰتِهِمْ ۖ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِم مِّن كُلِّ بَابٍ ﴿٢٣﴾ ﴾.

﴿ جَنَّٰتُ عَدْنٍ ﴾ بدل من عقبى الدار ﴿ يَدْخُلُونَهَا ﴾ يقيمون فيها ﴿ وَمَن صَلَحَ مِنْ ءَابَآئِهِمْ ﴾ جمع أبوي كل واحد منهم، فكأنه قيل: من آبائهم وأمهاتهم ﴿ وَأَزْوَٰجِهِمْ ﴾ أي زوجاتهم ونسائهم المؤمنات، ليأنسوا بلقاء الأهل والأولاد، ويتمَّ لهم السرور ﴿ وَذُرِّيَّٰتِهِمْ ﴾ أي أولادهم وأحفادهم، والمعنى: أنه يلحق بهم من صلح من أهلهم، وإن لم يبلغ مبلغاً من فضلهم، تبعاً لهم، تعظيماً لشأنهم، وتتميماً لسرورهم، وفي التقييد بالصلاح قطعٌ للأطماع الفارغة، لمن يتمسك بمجرد حبل الأنساب، وإنما يلحق الله

الذرية والأولاد بالآباء، لأنه من أعظم موجبات سرورهم، أن يجتمعوا فيتذكروا أحوالهم في الدنيا، ثم يشكرون الله على الخلاص منها، والفوز بالجنة قال الله تعالى في أهل الجنة: ﴿ياليت قومي يعلمون بما غفر لي ربي وجعلني من المكرمين﴾[1] ﴿وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِم مِّن كُلِّ بَابٍ﴾ أي من أبواب المنازل، يدخلون لإتحافهم بأنواع التحف قائلين:

﴿سَلَٰمٌ عَلَيْكُم بِمَا صَبَرْتُمْ ۚ فَنِعْمَ عُقْبَى ٱلدَّارِ ﴿٢٤﴾﴾.

﴿سَلَٰمٌ عَلَيْكُم﴾ بشارة لهم بدوام السلامة ﴿بِمَا صَبَرْتُمْ ۚ﴾ أي هذه الكرامة العظمى بسبب صبركم، وتخصيصُ الصبر بما ذُكر من الصلاة السابقة، لما أن له دخلاً في كل منها، ومزية زائدة من حيث ملاك الأمر في كل منها، وأن شيئاً منها لا يُعتدُّ به إلاَّ أن يكون لابتغاء وجه الرب تعالى ﴿فَنِعْمَ عُقْبَى ٱلدَّارِ﴾ أي فنعم عاقبة الدنيا: الجنةُ، وقد كان النبي ﷺ يأتي قبور الشهداء على رأس كل حول فيقول: ﴿سَلَامٌ عَلَيْكُم بِمَا صَبَرْتُمْ فَنِعْمَ عُقْبَى الدَّارِ﴾[2].

﴿وَٱلَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهْدَ ٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ مِيثَٰقِهِۦ وَيَقْطَعُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِى ٱلْأَرْضِ ۙ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوٓءُ ٱلدَّارِ ﴿٢٥﴾﴾.

﴿وَٱلَّذِينَ﴾ أُريد بهم من يقابل الأولين، ويخالفهم في الاتصاف بنقائض صفاتهم ﴿يَنقُضُونَ عَهْدَ ٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ مِيثَٰقِهِۦ﴾ أي من بعد ما أوثقوه من الاعتراف والقبول، قيل الآية نزلت في أهل الكتاب ﴿وَيَقْطَعُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ﴾ من الإيمان بجميع الأنبياء الآمرين بالتوحيد، ومن حقوق الأرحام، وموالاة المؤمنين وغير ذلك، مما لا يراعون حقوقه، وإنما لم

---

(١) سورة يس، آية: ٢٧.

(٢) أخرجه ابن جرير الطبري عن محمد بن إبراهيم ٣/ ١٣٩.

يتعرض لنفي الخشية والخوف عنهم صريحاً لدلالة النقض والقطع على ذلك ﴿وَيُفْسِدُونَ فِي ٱلْأَرْضِ﴾ بالظلم وتهييج الفتن، وبالكفر والعصيان ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ الموصوفون بما ذكر من القبائح ﴿لَهُمُ﴾ بسبب ذلك ﴿ٱللَّعْنَةُ﴾ الإبعاد من رحمة الله ﴿وَلَهُمْ سُوٓءُ ٱلدَّارِ﴾ أي سوء عاقبة الدنيا لأنه في مقابلة عقبى الدار.

﴿ٱللَّهُ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ ۚ وَفَرِحُوا۟ بِٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا فِى ٱلْءَاخِرَةِ إِلَّا مَتَٰعٌ ﴿٢٦﴾﴾.

﴿ٱللَّهُ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ﴾ أي يوسّعه ﴿لِمَن يَشَآءُ﴾ من عباده ﴿وَيَقْدِرُ ۚ﴾ أي يضيّقه، والمراد بالرزق الدنيوي، لا ما يعم الأخروي يقال: قَدَر اللهُ الرزق يقدِرُه من باب ضرب ضيَّقه على ما يشاء حسبما تقتضيه الحكمة، من غير أن يكون لأحد مدخل في ذلك، فربما يبسط للكافر ابتلاءً واستدراجاً، وربما يضيّقه على المؤمن، زيادة على أجره فلا يُقال: كيف يكون الكافر مع ما عليه من الضلال في سعة من الرزق؟ فبيَّن سبحانه أن سعة رزقهم ليس تكريماً لهم، كما أن تضييق رزق بعض المؤمنين ليس للإهانة لهم، بل لحِكَمٍ إلَهية يعلمها سبحانه ﴿وَفَرِحُوا۟﴾ أهل مكة فرح أَشَر وبطر، لا فرح سرور بفضل الله تعالى ﴿بِٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ بما بسط لهم من نعيمها ﴿وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا﴾ بما بسط لهم فيها من النعم ﴿فِى ٱلْءَاخِرَةِ﴾ في جنب نعيم الآخرة ﴿إِلَّا مَتَٰعٌ﴾ إلا شيء تافه حقير يتمتع به، كعجالة الراكب وزاد الراعي، يعني شيء قليل النفع، وسريع الفساد، وذلك لا يوجب الفرح[1]. عن عبد الله بن مسعود قال: نام رسول الله ﷺ على حصير، فقام وقد أثَّر في جنبه، فقلنا يا رسول الله: لو اتخذنا لك وطاءً ـ أي فراشاً ليناً ـ فقال:

(١) المتاعُ: كلُّ ما يتمتع به الإنسان ثم يضمحل ويفنى، والمراد أن نعيم الدنيا وشهواتها وملاذّها شيء قليل ذاهب، ومتاع حقير بالنسبة لنعيم الآخرة.

«ما لي وللدنيا؟ ما أنا في الدنيا، إلاَّ كراكب استظلَّ تحت شجرة، ثم رَاحَ وتركها»[1].

﴿ وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوۡلَآ أُنزِلَ عَلَيۡهِ ءَايَةٞ مِّن رَّبِّهِۦۚ قُلۡ إِنَّ ٱللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهۡدِيٓ إِلَيۡهِ مَنۡ أَنَابَ ٢٧ ﴾.

﴿ وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوۡلَآ أُنزِلَ عَلَيۡهِ ءَايَةٞ مِّن رَّبِّهِۦۚ ﴾ أي هلاَّ أنزل على محمد آية أي معجزة، كمعجزة العصا لموسى، وإحياء الموتى لعيسى؟ ﴿ قُلۡ إِنَّ ٱللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَآءُ ﴾ إضلاله باقتراح الآيات بعد ظهور المعجزات، وهو كلامٌ جارٍ مجرى التعجب من قولهم، وذلك أن الآيات الباهرة المتكاثرة، التي أوتيها ﷺ لم يؤتها نبي قبله، وكفى بالقرآن آية، فإذا جحدوها ولم يعتدُّوا بها، كان ذلك موضعاً للتعجب، فما أعظم عنادهم، وما أشد كفرهم!! والله تعالى يخلق فيمن يشاء الضلال، لسوء استعداده، كمن كان على صفتكم في المكابرة والعناد، والغلو في الفساد، فلا سبيل له إلى الاهتداء ولو جاءته كل آية ﴿ وَيَهۡدِيٓ إِلَيۡهِ ﴾ أي إلى جانبه العلي الكبير، هداية موصلة إليه ﴿ مَنۡ أَنَابَ ﴾ أي أقبل إلى الحق، ورجع عن العناد وأناب إليه سبحانه، والآية صريحة لما ذهب إليه أهل السنة والجماعة في نسبة الخير والشر إليه عزَّ وجل.

﴿ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَتَطۡمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكۡرِ ٱللَّهِۗ أَلَا بِذِكۡرِ ٱللَّهِ تَطۡمَئِنُّ ٱلۡقُلُوبُ ٢٨ ﴾.

﴿ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ﴾ بدل ممن أناب أي هم الذين آمنوا بالله، وصدَّقوا رسوله، وأيقنوا بالآخرة والحساب والجزاء ﴿ وَتَطۡمَئِنُّ قُلُوبُهُم ﴾ أي تأنس وتسكن ﴿ بِذِكۡرِ ٱللَّهِۗ ﴾ أي بكلامه المعجز الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه

---

(١) الحديث أخرجه الترمذي وصحَّحه رقم ٢٣٧٨.

ولا من خلفه، وإطلاق الذكر على ذلك شائع، كما في قوله تعالى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ﴾ وقوله: ﴿وَهَذَا ذِكْرٌ مُبَارَكٌ أَنْزَلْنَاهُ﴾ وسبب اطمئنان قلبهم بذلك، علمهم أن لا آية أعظم منه، ولذلك لا يقترحون الآيات كغيرهم، والعدول إلى صيغة المضارع، لإفادة دوام الاطمئنان وتجدده، بحسب تجدّد المنزل من الذكر ﴿أَلَا بِذِكْرِ ٱللَّهِ﴾ وحده ﴿تَطْمَئِنُّ ٱلْقُلُوبُ﴾ أي تأنس وتسكن قلوبهم بذكره، دون غيره من الأمور التي تميل إليها النفوس من الدنيويات، وفيه إشعار بأن الكفرة ليست لهم قلوب معتبرة، حيث لم يطمئنوا بذكر الله، فإن قيل: قال الله سبحانه: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إذا ذُكِرَ الله وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ﴾ والوَجَلُ ضد الاطمئنان!! قلنا: المراد ههنا حصول الطمأنينة لهم، لكونه حقاً وارداً من عند الله سبحانه، والوجلُ خوفُ الجلالة، والعظمة والهيبة، أي وجلت قلوبهم من هيبته عز شأنه، وذلك دليل الإيمان، فلا تعارض بين الآيات.

﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ طُوبَىٰ لَهُمْ وَحُسْنُ مَـَٔابٍ ﴿٢٩﴾﴾.

﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ أي أمَّا المؤمنون الصادقون، الذين آمنوا بالله ورسله ﴿وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ أي أحسنوا في الدنيا، فيقال لهم ﴿طُوبَىٰ لَهُمْ﴾ عن ابن عباس معناه: فرحٌ، وقرَّةُ عين لهم، وعن الضحاك: غبطةٌ لهم، وعن قتادة حسنى لهم، ويرجع ذلك إلى معنى العيش الطيب لهم ﴿وَحُسْنُ مَـَٔابٍ﴾ المرجع والمقرُّ وهي الجنة، وهذا وعدٌ من الله تعالى لهم ترغيباً لطاعته.

﴿كَذَٰلِكَ أَرْسَلْنَٰكَ فِىٓ أُمَّةٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهَآ أُمَمٌ لِّتَتْلُوَا۟ عَلَيْهِمُ ٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِٱلرَّحْمَٰنِ ۚ قُلْ هُوَ رَبِّى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ مَتَابِ ﴿٣٠﴾﴾.

﴿كَذَٰلِكَ﴾ مثل إرسال الرسل قبلك ﴿أَرْسَلْنَٰكَ فِىٓ أُمَّةٍ﴾ شبه إرساله ﷺ بإرسال من قبله، وإن لم يجر لهم ذكر، لدلالة قوله تعالى: ﴿قَدْ خَلَتْ﴾ أي مضت ﴿مِن قَبْلِهَآ أُمَمٌ﴾ كثيرة قد أرسل إليهم رسل، فليس ببدع إرسالك إليها ﴿لِّتَتْلُوَا۟﴾ لتقرأ ﴿عَلَيْهِمُ ٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ﴾ الكتاب الذي أوحيناه إليك ﴿وَهُمْ﴾ والحال أنهم ﴿يَكْفُرُونَ بِٱلرَّحْمَٰنِ﴾ أي يكفرون بالرحمن رب العزة والجلال، الذي أحاطت بهم نعمته، ووسعت كل شيء رحمته، فلم يعرفوا قدر هذه النعمة بإرسالك إليهم، وإنزال القرآن عليهم الذي هو مناط المنافع الدينية والدنيوية، نزلت في مشركي أهل مكة، حين قيل لهم: اسجدوا للرحمٰن، قالوا وما الرحمن؟ وأوثر هذا الاسم الدال على المبالغة في الرحمة، للإشارة إلى أن الإرسال ناشىء منها، كما قال تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ﴾ ﴿قُلْ﴾ يا رسول الله: إن الرحمٰن الذي أنكرتم معرفته ﴿هُوَ رَبِّى﴾ أي خالقي ومبلغي إلى مراتب الكمال ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ لا مستحق للعبادة سواه ﴿عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ﴾ في جميع أموري لا على أحد سواه ﴿وَإِلَيْهِ مَتَابِ﴾ أي توبتي ورجوعي ومرجعكم.

﴿وَلَوْ أَنَّ قُرْءَانًا سُيِّرَتْ بِهِ ٱلْجِبَالُ أَوْ قُطِّعَتْ بِهِ ٱلْأَرْضُ أَوْ كُلِّمَ بِهِ ٱلْمَوْتَىٰ ۗ بَل لِّلَّهِ ٱلْأَمْرُ جَمِيعًا ۗ أَفَلَمْ يَاْيْـَٔسِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَن لَّوْ يَشَآءُ ٱللَّهُ لَهَدَى ٱلنَّاسَ جَمِيعًا ۗ وَلَا يَزَالُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ تُصِيبُهُم بِمَا صَنَعُوا۟ قَارِعَةٌ أَوْ تَحُلُّ قَرِيبًا مِّن دَارِهِمْ حَتَّىٰ يَأْتِىَ وَعْدُ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُخْلِفُ ٱلْمِيعَادَ ﴿٣١﴾﴾.

﴿وَلَوْ أَنَّ قُرْءَانًا﴾ أي قرآناً ما، وكتاباً من الكتب السماوية ﴿سُيِّرَتْ بِهِ ٱلْجِبَالُ﴾ أي نُقلت من أماكنها وزعزعت من رواسيها، وهذا لبيان عظم شأن القرآن العظيم وتأثيره على النفوس ﴿أَوْ قُطِّعَتْ بِهِ ٱلْأَرْضُ﴾ أي شققت وجعلت أنهاراً وعيوناً أو جعلت قطعاً متصدعة، كما في قوله تعالى: ﴿لَوْ أَنْزَلْنَا هَذَا القُرْآنَ على جَبَلٍ لَرَأَيتَهُ خَاشِعَاً مُتَصَدِّعَاً مِنْ خَشْيَةِ الله﴾ ﴿أَوْ كُلِّمَ بِهِ ٱلْمَوْتَىٰ﴾ أي كلّم أحدٌ به الموتى، بأن أحياهم بقراءته، فتكلم معهم،

وجواب الشرط محذوف تقديره: لكان هذا القرآن، لكونه غايةً في الهداية والتذكير، ونهاية في الإنذار والتخويف، وقال الزجاج: تقديره لما آمنوا، لغلوهم في المكابرة والعناد، وتماديهم في الضلال والفساد، فلو أنَّ قرآناً فُعلت به هذه الأفاعيل العجيبة، لكان هذا القرآن المعجز، المنزل على خاتم الأنبياء والمرسلين[1] ﴿بَل لِّلَّهِ ٱلْأَمْرُ جَمِيعًا﴾ أي له جلَّ وعلا الأمر الذي عليه يدور فلك الأكوان، وجوداً وعدماً، يفعل ما يشاء ويحكم ما يريد، وهو إضراب عما تضمنته الشرطية من معنى النفي أي لو أن قرآناً جُعل به ما ذُكر، لكان ذلك هذا القرآن العظيم، ولكنْ لم يفعل سبحانه بل فعل ما عليه الشأن الآن لأن الأمر كله له وحده، روي أن بعض المؤمنين قالوا يا رسول الله: أجب هؤلاء الكفار إلى ما اقترحوه من الآيات، فعسى أن يؤمنوا فقيل: ﴿أَفَلَمْ يَاْيْـَٔسِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ﴾ أي أفلم يقنط المؤمنون، عن إيمان هؤلاء الكافرين، بعدما رأوا كثرة عنادهم، وبعدما شاهدوا الآيات؟[2] ﴿أَن لَّوْ يَشَآءُ ٱللَّهُ لَهَدَى ٱلنَّاسَ جَمِيعًا﴾ أي ألم يعلموا أن الله لو شاء هدايتهم لهداهم، وأنه سبحانه لم يشأ ذلك ﴿وَلَا يَزَالُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ أي كفار مكة ﴿تُصِيبُهُم بِمَا صَنَعُواْ﴾ من الكفر وسوء الأعمال، ﴿قَارِعَةٌ﴾ أي داهية تقرعهم وتقلعهم، بما يحلُّ بهم في كل وقت، من صنوف البلايا والمصائب، في نفوسهم وأولادهم، والقارعةُ: الشديدة من شدائد الدهر، من القرع وأصله ضرب شيء بشيء بقوة، والمراد بها هنا ما كان يصيبهم من أنواع البلايا والمصائب، من القتل، والأسر، والنهب ﴿أَوْ تَحُلُّ﴾ تلك

---

(١) الغرض تعظيم شأن القرآن، والرد على المشركين الذين كابروا في كون القرآن آية، واقترحوا آية غيرها، فنبههم تعالى أنه آية الآيات، ومعجزة المعجزات.

(٢) ذهب بعض المفسرين إلى أن معنى قوله تعالى: ﴿أفلم ييأس﴾ أفلم يعلم ويتبيّن، وهي لغة هوازن وهذا التفسير منقول عن بعض السلف، ولكن لا ضرورة لإخراج الكلمة عن معناها الأصلي، ما دام يمكن أن يفهمها على الوجه المتبادر، فمعنى أفلم ييأس أي أفلم يقنط المؤمنون من إيمان هؤلاء الكفرة؟ فهو أظهر وأشهر.

القارعة ﴿قَرِيبًا﴾ مكاناً قريباً ﴿مِّن دَارِهِمْ﴾ فيفزعون منها، ويتطاير شررها عليهم، وشبَّه القارعة بالعدو المتوجه إليهم فأسند إليها الإصابة تارة، والحلول أخرى ﴿حَتَّىٰ يَأْتِيَ وَعْدُ اللَّهِ﴾ بموتهم أو هلاكهم أو بمجيء القيامة، أو فتح مكة، فإن كلاً منها وعد محتوم، وفيه دلالة على ما يصيبهم عند ذلك من العذاب، ثم حقّق ذلك بقوله سبحانه: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُخْلِفُ الْمِيعَادَ﴾ الميعاد بمعنى الوعد، لامتناع الكذب في كلامه تعالى، أي لا يخلف وعده بنصرة أنبيائه.

﴿وَلَقَدِ اسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ فَأَمْلَيْتُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ ﴿٣٢﴾﴾.

﴿وَلَقَدِ اسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ﴾ كثيرة خلت ﴿مِّن قَبْلِكَ فَأَمْلَيْتُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا﴾ تسلية لرسول الله ﷺ ووعيد للمستهزئين، والإملاءُ: أن يترك الشيء في دَعَةٍ وأمن، كما يُملى للبهيمة في المرعى، والمعنى: إن ذلك ليس مختصاً بك، بل هو أمر مطّرد، قد فُعل ذلك برسل كثيرة كائنة من قبلك، فأمهلت الذين كفروا ما فعلوه بهم مدة من الزمن ﴿ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ﴾ أي ثم أخذتهم بالعذاب فكيف عقابي لهم؟ أي سأنتقم من هؤلاء أيضاً، كما انتقمت من أولئك المتقدمين.

﴿أَفَمَنْ هُوَ قَائِمٌ عَلَىٰ كُلِّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ وَجَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ قُلْ سَمُّوهُمْ أَمْ تُنَبِّئُونَهُ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِي الْأَرْضِ أَم بِظَاهِرٍ مِّنَ الْقَوْلِ بَلْ زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مَكْرُهُمْ وَصُدُّوا عَنِ السَّبِيلِ وَمَن يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ ﴿٣٣﴾﴾.

﴿أَفَمَنْ هُوَ قَائِمٌ﴾ رقيب عليها ومهيمن ﴿عَلَىٰ كُلِّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ﴾ من خير أو شر، فيثيبها إن أحسنت، ويعاقبها إن أساءت، كمن ليس كذلك، بل هو عاجز عن نفسه وهي الأصنام، ونظيره قوله تعالى: ﴿أَفَمَنْ يَخْلُقُ

كَمَنْ لاَ يخْلُقُ﴾؟ ﴿وَجَعَلُواْ لِلَّهِ شُرَكَآءَ﴾ أي أفمن هو بهذه الصفة لم يوحِّدوه، وجعلوا له شركاء لا شريكاً واحداً ﴿قُلْ سَمُّوهُمْ﴾ تبكيتٌ إِثْرَ تبكيت لهم، أي سمُّوهم من هم؟ وما هي أسماؤهم؟ وانظروا هل لهم ما يستحقون به العبادة، ويستأهلون الشركة؟ وإنما يقال ذلك في الأمر المستحقر، يعني أنه أخسُّ من أن يُسمَّى ويُذكر ﴿أَمْ تُنَبِّئُونَهُ﴾ أي بل أتخبرونه تعالى ﴿بِمَا لَا يَعْلَمُ فِي ٱلْأَرْضِ﴾ أي شركاء مستحقين للعبادة، لا يعلمهم سبحانه وتعالى، والمراد نفيها بنفي لازمها على طريق الكناية، لأنه سبحانه إذا كان لا يعلمها وهو الذي لا يَعْزُبُ عن علمه مثقال ذرة في الأرض ولا في السماء، فهي لا حقيقة لها أصلاً، وتخصيص الأرض بالذكر، لأن المشركين إنما زعموا أنه سبحانه له شركاء فيها ﴿أَم بِظَٰهِرٍ مِّنَ ٱلْقَوْلِ﴾ أي بل أتسمونهم شركاء، بظاهر من القول، من غير أن يكون له حقيقة، وهذا احتجاج بليغ على أسلوب عجيب، ينادي على نفسه بالإعجاز، فتبارك الله رب العالمين!! ﴿بَلْ زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ إضراب عن الاحتجاج عليهم، كأنه قيل: دع ما ذكر من الدليل، فإنه لا فائدة فيه، لأنه زُيِّن لهم كفرهم و﴿مَكْرُهُمْ﴾ كيدهم للإسلام بشركهم وتمويههم الاباطيل ﴿وَصُدُّواْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ﴾ سبيل الحق بختم الله تعالى على قلوبهم ﴿وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ﴾ أي يخلق فيه الضلال لسوء اختياره ﴿فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ﴾ يوفقه للهدى ويوصله إلى ما فيه نجاته.

﴿لَّهُمْ عَذَابٌ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَلَعَذَابُ ٱلْآخِرَةِ أَشَقُّ وَمَا لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن وَاقٍ ﴿٣٤﴾﴾.

﴿لَّهُمْ عَذَابٌ﴾ شاق ﴿فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ بالقتل، والأسر وسائر ما يصيبهم من المصائب، فإنها إنما تصيبهم عقوبة من الله على كفرهم ﴿وَلَعَذَابُ ٱلْآخِرَةِ أَشَقُّ﴾ من ذلك بالشدة والمدة ﴿وَمَا لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ﴾ من عذابه سبحانه ﴿مِن وَاقٍ﴾ من حافظ يحفظهم من ذلك.

﴿۞ مَّثَلُ ٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى وُعِدَ ٱلْمُتَّقُونَ ۖ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ۖ أُكُلُهَا دَآئِمٌ وَظِلُّهَا ۚ تِلْكَ عُقْبَى ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوا۟ ۖ وَّعُقْبَى ٱلْكَٰفِرِينَ ٱلنَّارُ ﴿٣٥﴾﴾.

﴿۞ مَّثَلُ ٱلْجَنَّةِ﴾ أي صفاتها العجيبة في الغرابة كالمثل ﴿ٱلَّتِى وُعِدَ ٱلْمُتَّقُونَ ۖ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ۖ﴾ تجري من تحت قصورها وغرفها أنهار الجنة ﴿أُكُلُهَا﴾ ثمرها ﴿دَآئِمٌ﴾ لا ينقطع أبداً ﴿وَظِلُّهَا ۚ﴾ أيضاً دائم لا ينسخ كما تنسخ ظلال الدنيا بالشمس ﴿تِلْكَ﴾ الجنة الموصوفة بما ذكر ﴿عُقْبَى ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوا۟ ۖ﴾ الكفر والمعاصي أي مآلهم ومنتهى أمرهم ﴿وَّعُقْبَى ٱلْكَٰفِرِينَ ٱلنَّارُ﴾ لا غير، وفيه ما لا يخفى من إطماع المتقين، وإقناط الكافرين.

﴿وَٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَفْرَحُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ ۖ وَمِنَ ٱلْأَحْزَابِ مَن يُنكِرُ بَعْضَهُۥ ۚ قُلْ إِنَّمَآ أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ ٱللَّهَ وَلَآ أُشْرِكَ بِهِۦٓ ۚ إِلَيْهِ أَدْعُوا۟ وَإِلَيْهِ مَـَٔابِ ﴿٣٦﴾﴾.

﴿وَٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ﴾ هم المسلمون من أهل الكتاب، كعبد الله ابن سلام وأصحابه، ومن آمن من النصارى وهم ثمانون رجلاً، أو عامتهم، فإنهم يفرحون بما يوافق كتبهم، وعن الحسن وقتادة: المراد بالكتاب «القرآن» وأهل القرآن ﴿يَفْرَحُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ ۖ﴾ إذ هو الموعود في التوراة والإنجيل ﴿وَمِنَ ٱلْأَحْزَابِ﴾ أي ومن أحزاب أهل الكتاب وهم الذين تحزبوا على رسول الله ﷺ بالعداوة ككعب بن الأشرف، والسيد، والعاقب وأتباعهم، والأحزاب جمع حزب: الطائفةُ المتحزبةُ، أي المجتمعةُ لأمرٍ ما كالحرب ونحوه ﴿مَن يُنكِرُ بَعْضَهُۥ ۚ﴾ أي ينكر بعض القرآن عناداً، مع يقينهم بصدقه لأنه موافق لما عندهم ﴿قُلْ﴾ يا رسول الله إلزاماً لهم، ورداً لإنكارهم، صادعاً بالحق ﴿إِنَّمَآ أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ ٱللَّهَ وَلَآ أُشْرِكَ بِهِۦٓ ۚ﴾ أي قل لهم: إنما أمرت فيما أُنزل إليَّ بعبادة الله وتوحيده، ولا سبيل لكم إلى إنكاره، لإطباق جميع الأنبياء والكتب الإلهية على ذلك كقوله تعالى: ﴿يا أهل

الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم ألا نعبد إلا الله ولا نشرك به شيئاً﴾[1] فما لكم تشركون به سبحانه عزيراً والمسيح؟ ﴿إِلَيْهِ﴾ أي إلى الله تعالى، وإلى ما أمرت به من التوحيد ﴿أَدْعُواْ﴾ الناس، لا إلى غيره، ولا إلى شيء آخر ﴿وَإِلَيْهِ﴾ إلى الله تعالى وحده ﴿مَتَابِ﴾ أي مرجعي للجزاء، وقوله: ﴿أمرت أن أعبد الله﴾ يدل على أن العبادة غاية التعظيم وقوله: ﴿ولا أشرك به﴾ يدل على نفي الإشراك، وقوله: ﴿إليه أدعو﴾ إشارة إلى نبوته ﷺ وقوله: ﴿وإليه مآب﴾ إشارة إلى الحشر والنشر.

ثم شرع في رد إنكارهم لفروع الشرائع، ببيان الحكمة في ذلك فقال سبحانه:

﴿وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَٰهُ حُكْمًا عَرَبِيًّا ۚ وَلَئِنِ ٱتَّبَعْتَ أَهْوَآءَهُم بَعْدَ مَا جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ ۙ مَا لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن وَلِىٍّ وَلَا وَاقٍ ﴿٣٧﴾﴾.

﴿وَكَذَٰلِكَ﴾ أي مثل ذلك الإنزال البديع حسبما تقتضيه الحكمة ﴿أَنزَلْنَٰهُ حُكْمًا﴾ أي حاكماً يحكم في القضايا والواقعات بالحق، والتعرض لذلك العنوان مع أن بعضه ليس بحكم، لتوضيح وجوب مراعاته ﴿عَرَبِيًّا﴾ مترجماً بلسان العرب، إذْ بذلك يسهل فَهمُه، وإدراكُ إعجازه بالنسبة للعرب ﴿وَلَئِنِ ٱتَّبَعْتَ أَهْوَآءَهُم﴾ التي يدعونك إليها كتقرير دينهم، والصلاة إلى قبلتهم، وترك الدعوة إلى الإسلام ﴿بَعْدَ مَا جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ﴾ العظيم الشأن، الفائض عليك من ذلك الحكم العربي ﴿مَا لَكَ مِنَ ٱللَّهِ﴾ من جنابه العزيز، والالتفاتُ وإيراد الاسم الجليل، لتربية المهابة في النفس ﴿مِن وَلِىٍّ﴾ يلي أمرك، وينصرك على من يبغيك الغوائل ﴿وَلَا وَاقٍ﴾ يقيك من مصارع السوء، وأمثالُ هاتيك القوارع والزواجر، إنما هي لقطع أطماع

---

(١) سورة آل عمران، آية: ٦٤.

الكفرة، وتهييج المؤمنين على الثبات على الدين، لا للنبي ﷺ فإنه بمكان لا يحتاج إلى باعث أو مهيّج، ولذا قيل: الخطابُ لغيره.

﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِّن قَبْلِكَ وَجَعَلْنَا لَهُمْ أَزْوَاجًا وَذُرِّيَّةً وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَن يَأْتِيَ بِآيَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ ﴿٣٨﴾ ﴾.

﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا ﴾ كثيرة ﴿ مِّن قَبْلِكَ ﴾ بشراً مثلك ﴿ وَجَعَلْنَا لَهُمْ أَزْوَاجًا وَذُرِّيَّةً ﴾ نساء وأولاداً، كما جعلناها لك، روي أن اليهود عيّرت رسول الله ﷺ، وقالوا لا نرى لهذا الرجل همة إلا النساء والنكاح، ولو كان نبياً لشغله أمر النبوة عن النساء، فنزلت رداً عليهم، حيث تضمنت أن التزوج لا ينافي النبوة، وأن الجمع قد وقع في رسل كثيرين، وفي تكثير نسائه ﷺ فوائد جمة، ولو لم يكن فيه سوى الوقوف على استواء سره وعلنه لكفى، لأن النساء من شأنهن أن لا يحفظن سراً كيف ما كان، وروي أنهم طعنوا في نبوته ﷺ بعدم الإتيان بما يقترحونه من الآيات فنزل في ذلك قوله تعالى: ﴿ وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَن يَأْتِيَ بِآيَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ ﴾ أي ما صح وما استقام ولم يكن في وسع رسول من الرسل، الذين من قبلك أن يأتي بآية مما اقترح عليه إلا بتيسير الله عليه، ومشيئته المبنية على الحكم والمصالح ﴿ لِكُلِّ أَجَلٍ ﴾ أي لكل مدة ووقت من الأوقات ﴿ كِتَابٌ ﴾ حكم معين يكتب على العباد، حسبما تقتضيه الحكمة والمصلحة، فإن الشرائع كلها لإصلاح أحوالهم، في المبدأ والمعاد، ومن قضية ذلك أن تختلف باختلاف أحوال الأمم، كاختلاف العلاج حسب اختلاف المرضى.

﴿ يَمْحُو اللَّهُ مَا يَشَاءُ وَيُثْبِتُ وَعِندَهُ أُمُّ الْكِتَابِ ﴿٣٩﴾ ﴾.

﴿ يَمْحُو اللَّهُ مَا يَشَاءُ وَيُثْبِتُ ﴾ أي ينسخ ما يشاء نسخه من الأحكام، لما تقتضيه الحكمة بحسب الوقت ﴿ وَيُثْبِتُ ﴾ بدله ما فيه المصلحة، أو يبقيه على حاله غير منسوخ، أو يمحو سيئات التائب، ويثبت مكانه الحسنة،

قال الله تعالى: ﴿فأولئك يُبَدِّلُ الله سَيِّئاتِهِمْ حَسَنَاتٍ﴾ وعن ابن عباس ﴿يَمحُوا اللهُ مَا يَشَاءُ وَيُثبِتُ﴾ من أمور العباد، إلا السعادة، والشقاوة، والآجال، فإنها لا محو فيها[1] وقيل: هو عام في الرزق، والأجل، والسعادة، والشقاوة، ونُسب إلى جماعة من الصحابة والتابعين، كانوا يتضرعون إلى الله تعالى أن يجعلهم سعداء، وروي عن عمر رضي الله تعالى عنه أنه كان يطوف بالبيت ويقول: «اللهمَّ إن كنت كتبتَ عليَّ شقوةً أو ذنباً فامحه، واجعله سعادة ومغفرة، فإنك تمحو ما تشاءُ وتُثبتُ وعندك أم الكتاب»[2] وقيل: ما من شيء إلاَّ ويمكن تبديله حتى القضاء الأزلي، واستدل لذلك بأمور منها أنه قد صحَّ من دعائه ﷺ في القنوت «وقني شرَّ ما قضيت» وفيه طلب الحفظ من شر القضاء الأزلي، ولو لم يمكن تغييره، ما صحَّ طلبُ الحفظ منه، ومنها ما صحَّ في حديث التراويح قال ﷺ: «خشيت أن تفرض عليكم» فإنْ سَبَق القضاء بأنها ستفرض، لا معنى لهذه الخشية فتفرض، وإن سبق القضاء أن لا تفرض فمحالٌ أن تُفرض[3] ﴿وَعِندَهُۥٓ أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ﴾ أي أصل الكتاب، وهو اللوح المحفوظ، إذ ما من كائن إلاَّ وهو مكتوب فيه كما قال الله تعالى: ﴿وَلاَ رَطْبٍ وَلاَ يَابِسٍ إلاَّ فِي كِتَابٍ مُبينٍ﴾[4] وقال تعالى: ﴿عِلْمُهَا عِنْدَ رَبِّي فِي

---

(١) رواه عنه ابن مردويه، وذكره ابن كثير في تفسيره ٢/ ٥٣٨.

(٢) أخرجه عبد بن حميد عن عمر بن الخطاب، وانظر زاد المسير لابن الجوزي ٤/ ٣٣٧.

(٣) قال ابن عطية: والذي يتلخص من الآية، أن الأشياء التي قدَّرها الله تعالى في الأزل، لا يصح فيها محوٌ ولا تبديل، وهي التي كُتبت في أم الكتاب ـ يعني اللوح المحفوظ ـ وسبق بها القضاء، وأما الأشياء التي أخبر الله أنه يُبدّل فيها وينقل، كمغفرة الذنوب بعد تقررها، وكنسخ آية بعد تلاوتها، ففيها يقع المحو والتثبيت، فيما يقيّده الحفظة ونحو ذلك، وأما إذا رُدَّ الأمر إلى القضاء والقدر، فقد محا الله ما محا، وأثبت ما أثبت. ا هـ المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز ٨/ ١٨٢.

(٤) سورة الأنعام، آية: ٥٩.

كِتَابٍ﴾[1] وقال سبحانه: ﴿وكلَّ شيءٍ أحْصَيْنَاهُ في إمَامٍ مُبِينٍ﴾[2] وجمهور العلماء على أن هذه الآيات كلها في معنى واحد، روى البخاري عن أبي هريرة مرفوعاً «لما قضى الله الخلق، كتب في كتابه فهو عنده فوق العرش، إن رحمتي غلبت غضبي»[3] وروى البخاري عن عمران بن حصين مرفوعاً: «وكتب في الذكر كل شيء» وروى مسلم في صحيحه عن عبد الله بن عَمرو بن العاص مرفوعاً «كتب مقادير الخلائق قبل أن يخلق السماوات والأرض بخمسين ألف سنة»[4] وروى أحمد والترمذي عن عبادة بن الصامت مرفوعاً «أول ما خلق الله القلم ثم قال: اكتبْ فجرى بما هو كائنٌ إلى يوم القيامة»[5] ومذهب السلف أن نؤمن بالقلم الإلٰهي، واللوح المحفوظ، وما كتب القلم في اللوح من مقادر الخلق، ونحو ما ورد، من غير أن نحكم بآرائنا في صفة شيء، وتفسير أم الكتاب بعلم الله تعالى، ممَّا رواه عبد الرزاق وابن جرير عن كعب.

﴿وَإِن مَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ ٱلَّذِى نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ ٱلْبَلَٰغُ وَعَلَيْنَا ٱلْحِسَابُ ﴿٤٠﴾﴾.

﴿وَإِن مَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ ٱلَّذِى نَعِدُهُمْ﴾ المراد بعض الذي وعدناهم من إنزال العذاب عليهم ﴿أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ﴾ قبل ذلك ﴿فَإِنَّمَا عَلَيْكَ ٱلْبَلَٰغُ﴾ لا غير، أي فما يجب عليك إلا تبليغ الرسالة، لا تحقيق ما بلغته من الوعيد ﴿وَعَلَيْنَا ٱلْحِسَابُ﴾ أي علينا حسابهم وجزاؤهم، فلا تهتمَّ بما وراء ذلك، فنحن نكفيكه، ونتمُّ ما وعدناك من الظفر، ولا يُضْجرك تأخره، فإن ذلك لما

---

(١) سورة طه، آية: ٥٢.
(٢) سورة يس، آية: ١٢.
(٣) أخرجه البخاري في التوحيد ١٣/ ٤٠٤ ومسلم رقم ٢٧٥١ في التوبة.
(٤) أخرجه مسلم في القَدَر رقم ٢٦٥٣ والترمذي رقم ٢١٥٧ في القَدَر أيضاً.
(٥) أخرجه الترمذي في القَدَر رقم ٢١٥٦ وأحمد في المسند ٥/ ٣١٧.

نعلم من المصالح الخفية، ثم إنه سبحانه طيَّب نفسه ﷺ بطلوع تباشير الظفر، فقال:

﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا نَأْتِي الْأَرْضَ نَنقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا ۚ وَاللَّهُ يَحْكُمُ لَا مُعَقِّبَ لِحُكْمِهِ ۚ وَهُوَ سَرِيعُ الْحِسَابِ ﴿٤١﴾﴾.

﴿أَوَلَمْ يَرَوْا﴾ استفهام إنكاري، والواو للعطف على مقدر يقتضيه المقام، أي أأنكروا نزول ما وعدناهم ولم يروا ﴿أَنَّا نَأْتِي الْأَرْضَ﴾ أرض الكفرة ﴿نَنقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا﴾ بأن نفتحها على المسلمين شيئاً فشيئاً، ونلحقها بدار الإسلام، ونذهب منها أهلها بالقتل، والأسر، والإجلاء، فانتقاصُ أرضهم وقواهم وازدياد قوة المسلمين، من أقوى العلامة على إنجاز الوعد، نظيره قوله تعالى: ﴿أَفَلَا يَرَوْنَ أَنَّا نَأْتِي الْأَرْضَ نَنْقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا، أَفَهُمُ الْغَالِبُونَ﴾[1] ؟ وأخرج الحاكم عن ابن عباس وصححه أن انتقاص الأرض موتُ أشرافها وكبرائها وذهاب العلماء منها ﴿وَاللَّهُ يَحْكُمُ﴾ ما يشاء كما يشاء، وقد حكم للإسلام بالعزَّة والإقبال، وعلى الكفر بالذلة والإدبار، حسبما يشاهده ذوو الأبصار ﴿لَا مُعَقِّبَ لِحُكْمِهِ﴾ أي لا رادَّ له، والمعقب الذي يكر على الشيء فيبطله ﴿وَهُوَ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾ فمما قيل يحاسبهم ويجازيهم بأفانين العذاب في الآخرة، وعن ابن عباس معناه سريع الانتقام.

﴿وَقَدْ مَكَرَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَلِلَّهِ الْمَكْرُ جَمِيعًا ۖ يَعْلَمُ مَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ ۗ وَسَيَعْلَمُ الْكُفَّارُ لِمَنْ عُقْبَى الدَّارِ ﴿٤٢﴾﴾.

﴿وَقَدْ مَكَرَ﴾ الكفار ﴿الَّذِينَ﴾ خلوا ﴿مِن قَبْلِهِمْ﴾ من قبل كفار مكة بأنبيائهم، وبالمؤمنين منهم، وهذا تسلية لرسول الله ﷺ بأنه لا عبرة بمكرهم، ولا تأثير، ولم يصرح سبحانه لدلالة القصر في قوله تعالى:

---

(١) سورة الأنبياء، آية: ٤٤.

﴿فَلِلَّهِ ٱلْمَكْرُ﴾ أي جنس المكر ﴿جَمِيعًا﴾ أي لا وجود لمكرهم أصلاً، إذ هو عبارة عن إيصال المكروه إلى الغير، وحيث كان جميع ما يأتون بعلمه وقدرته سبحانه، وأعمالهم مجرد الكسب حسبما بينه سبحانه بقوله: ﴿يَعْلَمُ مَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ﴾ ومن قضية عصمة أوليائه، وعقاب الماكرين بهم، ظهر أن ليس لمكرهم بالنسبة إلى مكر الله بهم عين ولا تأثير، على معنى أن ذلك ليس مكراً بالأنبياء، بل هو بعينه مكرٌ من الله عزَّ وجلَّ بهم، وهم لا يشعرون، حيث لا يحيق المكر السيِّئ إلاَّ بأهله ﴿وَسَيَعْلَمُ ٱلْكُفَّٰرُ﴾ المراد الجنسُ أي جميع الكفار، الذين كذبوا برسالة محمد ﷺ حين تُوفَّى كلُّ نفس جزاء ما كسبته ﴿لِمَنْ عُقْبَى ٱلدَّارِ﴾ أي العاقبة الحميدة من الحزبين، وهذا كالتفسير لمكر الله تعالى.

﴿وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَسْتَ مُرْسَلًا ۚ قُلْ كَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًۢا بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ وَمَنْ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلْكِتَٰبِ ﴿٤٣﴾﴾.

﴿وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَسْتَ مُرْسَلًا ۚ﴾ يقول كفار مكة لرسول الله ﷺ لست يا محمد مرسلاً من عند الله، وصيغة الاستقبال للدلالة على تجدد ذلك واستمراره منهم ﴿قُلْ كَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًۢا بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ﴾ فإنه تعالى قد أظهر على رسالتي من الحجج القاطعة، والبينات الساطعة، ما فيه مندوحة عن شهادة شاهد آخر ﴿وَمَنْ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلْكِتَٰبِ﴾ أي علم القرآن، وما عليه من النظم المعجز، وإخباره عن الغيوب، وقيل: المراد بالكتاب التوراةُ والإنجيلُ، فالمراد بمن عنده علمها الذين أسلموا من أهل الكتاب، كعبد الله بن سلام وأضرابه، أخرجه ابن جرير عن ابن عباس، والله أعلم بمراده، وأسرار كتابه، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وأصحابه أجمعين، والحمد لله رب العالمين.

«تم بعونه تعالى تفسير سورة الرعد»

* * *